فيها صور الأشياء ، والذى يجلو القلب ويزكيه : هو الإقبال على الطاعة والعبادة مع توحيد القصد ، وإجتماع الهم ومجاهدة النفس ، وقطع علاقة القلب عن الدنيا .. فهذا هو مفتاح أكثر المعارف وأصفاها [1] .

وربما تجاوز فلاسفة الصوفية هذا الحد إلى الزعم بأن المعرفة لا تكون إلا كشفاً ومشاهدة وأن الكشف وحده هو منهج المعرفة ، ويدعون بأن المعارف لا تصح إلا حين يصبح العارف عين المعروف ، والمشاهد عين المشاهَد ، وأن الطريق إلى هذه المعرفة هو : إماتة القوى الحسية وإدامة النَظر ، وطول الفكرة فى عين الشهود ، حتى ينكشف حجاب الحس ، ويشاهد العارف عين الحق فيتحد به ويفنى فيه ، ويطلع من ثم على عوالم من أمر الله ، ويدرك من حقائق الغيب مالا يدركه سواه[2]

وكان البسطامى (ت ٢٦١هـ) يقول : إن الله قد اطلع على قلوب عباده فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفاً فشغلهم بالعبادة ، وأهل المعرفة ليسوا فى شغل عن الله بغيره ، وكان يرى أن أحسن حال العبد مع الله أن يكون بلا زهد ، ولا علم و لا عمل ، لأن كل ذلك شاغل عن الله ، وحائل دون الوصول إليه ، فإنه إذا كان بلا شئ كان له كل شئ [3] .

وينتهى الصوفية إلى أن العقل بمقولاته ، وقوانينه محجوب عن هذه المعرفة ، لأنه مقيد بعالم الشهادة ، دون إدراك لسر عالم الغيب الذى لا يدرك إلا ذوقاً ، ولا يعرف إلا إلهاماً لأن مالا يتناهى لا يدركه المتناهى بآلة متناهية ، ومن ثم كان منهج الصوفية هو « الذوق » لا العقل ووسيلتهم هو الرياضة والمجاهدة .

وبهذا تجاوزت الفلسفة الصوفية حد الاعتدال الذى نراه فى التصوف السنى إلى تطرف أو رد فعل متطرف فى الجانب المقابل لمنهج العقل .

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » للغزالى ١ / ٢٠ ، ٢ / ١٩ .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون / ٤٠٠ .

(٣) راجع « تذكرة الأولياء » ١ / ١٦٢ ، وكتابنا « التصوف بين أنصاره وخصومه » ٣٠٥ وما بعدها .

٤- المنهج العقلى النصى الذوقى :

هذا المنهج - الذى آثرنا أن نعطيه شيئاً من التفصيل لما يستحقه من اهتمام ، وأن نكتفى به عن عرض المنهج « النص العقلى » عند أهل السنة [١] - هو المنهج « الغزالى » فى المعرفة .

هذا المنهج الذى عالج كل أو جل جوانب المشكلة ، وتناول كل أو جل ما فيها من إشكالات بحلول جيدة مقنعة ، ولعل الغزالى بمنهجه هذا كان أقرب إلى المنهج القرآنى الحكيم الذى استلهمه وصاغه صوغاً دقيقاً محكماً ، لولا أنه متفرق فى كثير من كتبه ، ولهذا رأينا أن نجمع متفرق هذا المنهج ، وأن نصوره بقدر ما يتسع له صدر هذا البحث ، وإن كان الموضوع فى حاجة إلى دراسة مستفيضة متأنية .

إن أول ما يستوقفنا من كلام « الغزالى » قوله : « يقل على بسيط الأرض من يستقل فى قواعد العقائد بإقامة الحجة والبرهان ، بحيث يرقيها من حضيض الظن والحسبان إلى يفاع القطع والاستيقان ، فإنه الخطب الجسيم ، والأمر العظيم الذى لا تستقل بأعبائه بضاعة الفقهاء ، ولا يضلع بأركانه إلا من تخصص بالمعضلة الزباء ، لما نجم فى أصول الديانات من الأهواء » [٢] .

ولكن ما هو السبيل إلى هذا القطع والاستيقان ؟ هل هو المنهج الحسى بأدواته ووسائله ؟ أو هو المنهج العقلى بمقولاته ومنطقه ؟ أو هو المنهج النصى بأخباره ودلائله ؟ أو هو المنهج الذوقى بإشراقاته ومواجده ؟ إن الغزالى لا يريد أن يجيب على شئ من هذه الأسئلة مباشرة دون دراسة متأنية ، ونظر مستفيض .

لقد نشأ الغزالى وفى عقله سؤال محير ، لا يريد أن يسأل عنه أحداً لأن الناس جد مختلفين حوله وهو « أين الحقيقة ؟ وما هو الطريق إليها ؟ »

وقد اقتضاه ذلك أن يستعرض جميع الإتجاهات الفكرية والدينية لعصره ، وأن يطلع على ما فيها من غور وغائلة ، وأخذ يتقحم كل مشكلة ويسبر غور كل معضلة [٣] ، ولكنه لم ينته من هذه الدراسة المستفيضة إلا إلى الشك الذى أطبق على عقله ، واستولى على قلبه حتى وصل به إلى الشك فى الضرورات والبدهيات العقلية ، وظل على ذلك وقتاً طويلاً ، حتى أعاد الله له اليقين بها على أمن وطمأنينة

(١) لأن الغزالى من أئمتهم ، وسوف نعرض لهذا المنهج من خلال المنهج الكلامى عند الغزالى .

(٢) فضائح الباطنية / ٤ تحقيق نادى فرج / المكتب الثقافى .

(٣) انظر مقدمة كتابيه « المنقذ من الضلال » ، « مقاصد الفلاسفة » .

ولم يكن ذلك – كما يقول الغزالى – « بنظم دليل ، ولا بترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى صدره ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف مقصور على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة » (١) .

وهكذا خرج الغزالى من وهدة الشك بمنهج آخر فى المعرفة إلى جانب المناهج المستخدمة من قبل لدى الفلاسفة والمتكلمين ، ولم يكن ذلك من الغزالى نقضاً لمنهج العقل ، أو النقل كما يزعم البعض ، وإنما كان درجة من درجات المعرفة أراد الغزالى أن يقررها لنفسه وللناس ، وأن يصرف وجوههم إليها وينبههم إلى يقين معرفتها ، ولذلك قال : « فمن ظن أن الكشف مقصور على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة » ومن ثم بدأ الغزالى على أساس من العلم والمعرفة بعلوم عصره وفلسفتة يصوغ منهجه ، ذلك المنهج الذى يتألف عند الغزالى من اتجاهين :

الإتجاه الأول : اتجاه نقدى سلبى هدام .

الإتجاه الثانى : اتجاه إيجابى بناء .

=أما الإتجاه الأول : فيتمثل فى موقفه النقدى من الفلسفة ، وعلم الكلام ، ومذاهب الحشوية ، والباطنية ، والصوفية جميعاً ، وهى الاتجاهات الفكرية ، والدينية التى كانت سائدة لعصره .

١– موقفه من الفلاسفة :

أما موقفه من الفلاسفة – وقد توغل فى دراسة منهجهم ومذهبهم إلى الحد الذى جعله يؤلف فيه كتابه « مقاصد الفلاسفة » – فقد ضمنه كتابه الشهير « تهافت الفلاسفة » هذا الكتاب الذى تصدى فيه للرد عليهم ، وإبطال أدلتهم ، وبيان وجوه تهافتهم ، وهو يناظرهم فيه بمقتضى قواعدهم ومنهج العقل عندهم .

ولكن الغزالى حين تناول مذهب الفلاسفة ومنهجهم بالنقد لم يرد – كما يظن – أن يلغى العقل الذى هو منهج الفلاسفة مطلقاً ، وأن يقضى عليه قضاء مبرماً ، لأنه يستخدم العقل فى جميع مؤلفاته الكلامية ، والمنطقية ، بل والصوفية كذلك حيث يرى أنه لابد للتصوف من العقل (٢) . ولأنه يستخدم العقل للرد على منهج العقل ، وإنما أراد أن يهدم النظرة العقلية الغالية التى ذهب إليها كل من المعتزلة والفلاسفة ، وأن يشكك فى قيمة العقل الجدلى ، والاستدلالى البرهانى الذى يزعم أصحابه الوصول به إلى الحقائق الدينية استقلالاً ، والذى جعلوا منه شريعة عقلية حاكمة

---

(١) المنقذ من الضلال : ٢٧٤ تحقيق د . عبدالحليم محمود/ الأنجلو المصرية/ ١٩٦٢م .

(٢) راجع كتابنا « التصوف بين أنصاره وخصومه » ٢٦٣ وما بعدها .

على الشريعة الدينية . ولم يرد الغزالى كذلك أن يقضى على آرائهم ومبادئهم جميعاً ، لأن بعضها صحيح موافق للدين ، ولأنه يعتقد مثل هذا الآراء وينتصر لها فى مواطن كثير من كتبه ومؤلفاته ، وإنما أراد « تكدير مذهبهم والتغبير فى وجه أدلتهم بما يبين تهافتهم ، وينبه من حسن اعتقاده فيهم ، وظن أن مسالكهم نقية من التناقض ببيان وجوه تهافتهم [1] » .

« ولهذا كان يدخل عليهم دخول مطالب منكر ، لامدع مثبت » [2] كما يقول الغزالى .

٢- موقفه من المتكلمين :

أما موقفه من المتكلمين فقد ضمنه بعض كتبه : كإلجام العوام ، والمنقذ من الضلال ، وإحياء علوم الدين .. وغيرها ، وفى هذه المؤلفات ينعى عليهم الغزالى أموراً كثيرة منها :

أ - سوق كلامهم على مقتضى المراء الجدلى الذى لا يفهمه غيرهم ، لا على مساق الخطاب المقنع الذى يحصل به الإقناع لكل ذى حجًى وفطنة ، وإن لم يكن متبحراً فى العلوم ، وهؤلاء هم غالب الناس ، والعقيدة ليست لخواص الناس دون عامتهم ، ولا لطائفة دون أخرى [3] .

ب - وقوفهم بالأدلة عند حد الجدل مما جعل منهجهم قاصراً عن تحقيق الغاية التى يهدفون إليها ، وهى إثبات العقيدة ، وحفظها من تشويش المبتدعين فيها ، والمنكرين لها ، وما جاء فى كتبهم منها لا يعدوا أن يكون كلمات معقدة مبددة ، ظاهرها التناقض ، لا يظن الاغترار بها بعاقل ، فضلاً عمن يدعى دقائق العلوم. [4]

جـ- خوضهم فى استخراج مناقضات خصومهم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع فى حق من لم يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً .. واشتغالهم بالبحث عن الجواهر والأعراض وغيرها ، وليس ذلك هو مقصود علمهم ، ولذلك لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، ولم يحصل منه ما يمحو ظلمات الحيرة

---

(١) انظر : « المنقذ من الضلال » ٢٠٣، ٢١٢، ٢١٣ - و« الإسلام والعقل » د. عبدالحليم محمود ٨١، ٨٢ دار المعارف ١٩٨٠م - و د. محمد يوسف موسى « بين الدين والفلسفة » ٢٢٧ دار المعارف ١٩٥٩م - وانظر بحثنا « الفلسفة الإسلامية .. مدخل للدراسة والبحث » ٨١، ٨٣ بحولية كلية أصول الدين . المنوفية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

(٢) تهافت الفلاسفة ١٣ ، ٧٨ / تحقيق دنيا / دار المعارف / ط ٦ .

(٣) فضائح الباطنية : المقدمة .

(٤) المنقذ من الضلال : ٧ .

بالكلية[1] ولكن الغزالى مع ذلك لم يهدم منهج المتكلمين بالكلية ، ولم ير أن الكلام عديم الجدوى بالمرة ، ولكنه علم نافع فى بابه ، محقق لمقصود أصحابه [2] وإن لم يكن كذلك فى حق غيرهم .

٣- موقفه من الحشوية :

أما موقفه من الحشوية فقد تعرض له فى أكثر من موطن فى كتبه كما فى مقدمة كتابيه : « إلجام العوام » و« الاقتصاد فى الإعتقاد » وغيرهما ، وهو ينعى عليهم لإيجابهم التقليد فى العقائد ، واتباع ظواهر النصوص الشرعية وإن كان ظاهرها يوهم التشبيه والتجسيم « حتى اعتقدوا فى الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنة من الصورة واليد ، والقدم ، والنزول ، والانتقال ، والجلوس على العرش ، والاستقرار وما يجرى مجراه .. وزعموا أن معتقدهم فيه هو معتقد السلف » [3] .

ويرى أن التقليد واتباع الظواهر لم يكن من الحشوية إلا من ضعف عقولهم وقلة بصائرهم .. فكيف يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر ، وينكر مناهج البحث والنظر ؟ ! أو يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، مع أن برهان العقل هو الذى عرف به صدقه فيما أخبر ؟! [4] ، ولهذا حاول الغزالى أن يبين مذهب السلف وأن يحدد منهجهم حتى لا يختلط الأمر بين الحشوية والسلفية .

٤- موقفه من التعليمية « الباطنية » :

ولحجة الإسلام أكثر من كتاب فى الرد على الباطنية منها كتابه « المستظهرى » أو « فضائح الباطنية » وهو مطبوع مشهور ، و« قواصم الباطنية » ، و« مفصل الخلاف » وغيرها ، وينعى عليهم فيها أموراً كثيرة بلغت بهم درجة الكفر والخروج من الملة [5] وفيما ينعاه عليهم من ذلك : إبطال الرأى والنظر ، ودعوة الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم ، والزعم بأنه لا مدرك للعلوم إلا بالتعليم ، نظراً لتعارض الأراء ، وتقابل الأهواء ، واختلاف ثمرات العقول ، ومن ثم وجب اتباع الإمام ،

---

(١) المنقذ من الضلال : ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) راجع « مقدمة الاقتصاد فى الاعتقاد » للغزالى/ ٧وما بعدها .. تحقيق الشيخ مصطفى أبى العلا / مكتبة الجندى .

(٣) إلجام العوام / المقدمة / القصور العوالى / مكتبة الجندى .

(٤) الإقتصاد فى الإعتقاد / ٧ ، ٨ .

(٥) انظر فضائح الباطنية : ١٤٦ ، ١٦٠ .

والاقتداء به ، وإنزاله منزلة الرسول المعصوم صلوات الله وسلامه عليه [1] . ولكن الغزالى لا ينكر مع ذلك القول بالتعليم مطلقاً ، ولكنه يراه ضرورياً لاسيما فى مجال العلوم الدينية والذوقية وإنما ينعى عليهم : قَصْرُ منهج المعرفة على التعليم ، وقصر التعليم على الإمام المعصوم ، وإلزام الخلق تعلم الحق ، وتعرف معانى الشرع منه وحده [2] دون غيره .

٥- موقفه من الصوفية :

ويصوره فى كتبه « إحياء علوم الدين » و« التهافت » و« المنقذ من الضلال » و« كمياء السعادة » و« فيصل التفرقة » و« أيها الولد » .. وغيرها ، يتناول فيها مزاعم أدعياء التصوف ، وأصحاب نظريات الاتصال ، والاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود ، وإلغاء التكاليف الدينية ، أو إلغاء الشريعة بحجة الوصول إلى الحقيقة ، والاشتغال بالشطح والطامات ، والغرور بالكرامات إلى غير ذلك من الدعاوى العريضة التى لا تدل إلا على خبط فى عقول هؤلاء ، وتشويش فى خيالهم ، لعدم ممارستهم لعلوم الشريعة ، وعدم رسوخ قدمهم فى المعقولات ، وعدم قدرتهم على التعبير عما يعجز عنه التعبير ويَقْصُر دونَه الكلام [3] . كما ينكر عليهم تنكرهم للعقل والاكتفاء عن العقل بالذوق ، بل والادعاء بأن المعرفة لا تأتى إلا من هذا الوجه وليس يعنى هذا أن الغزالى ينكر منهج التصوف فى الوصول إلى الحقيقة ، بل يراه الطريق الأوثق إليها ، والدرجة العليا فيها .

= وقد أراد الغزالى أن ينتهى من هذا المنهج النقدى إلى ما يأتى :

١- إقناع جمهور المسلمين بأن العقل وحده بغير هداية السماء لا يستطيع الوصول إلى الحقائق الإلهية والعقائد الدينية ، ليمهد نفوسهم ، ويوجه عقولهم إلى الدين بدلاً من العقل الجدلى ، أو المنطقى الذى اغتر به بعض الناس ، وبعدوا به عنه .

٢- توجيه الناس إلى الناحية العملية ، إلى جانب الناحية النظرية الفكرية التى استولت عليهم ، واستنفذت جهودهم ، وكانت مثار خلافهم ومنتهى جدلهم .

٣- الرجوع إلى القلب المؤمن المستضئ بنور الإيمان ، والمستعد لفيض الرحمن ، والذى تشرق فيه الحقائق الإلهية ذوقاً وكشفاً ، وتلقى فيه إلقاء لاكسباً ، ليدرك الناس أن وراء العقل وسيلة أخرى من وسائل المعرفة هى أعظمها وأوثقها ، وإن لم

(١) المرجع السابق ٣٧ ، ٧٩ - ١٣١ ، ١٤٢- ١٤٥ .

(٢) راجع المنقذ من الضلال ١٦٥ - ١٧١ .

(٣) راجع كتابنا « التصوف بين أنصاره وخصومه » ٢٧٤ وما بعدها .

تكن الطريق الأوحد إليها .

٤-الرجوع إلى الرسول والقرآن بدلاً من الإمام ، لأنه لا عصمة فى غيرهما ، ولا معلّم سواهما ، وكل الناس يصدر منهما ، ويرجع إليهما « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسنتى » .

٥-الالتزام بمنهج الاعتدال فى التصوف وغيره دون تجاوز لحدود الحقيقة أو خروج عليها ، أو تهاون فيها ، لأن الحق بين طرفى الإفراط والتفريط .أما الذى دعاه إلى اتخاذ هذا الموقف فهو ما ذكره الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال»[١] حيث يقول:

إنى نظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم فإذا هى أربعة :

١- سبب من الخائضين فى علم الفلسفة .

٢- وسبب من الخائضين في طريق التصوف .

٣- وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم .

٤- وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فلما رأيت أصناف الخلق من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب ، ورأيت نفسى مُلِبَّة « أى ملزمة » بكشف هذه الشبهات .. انقدح فى نفسى أن ذلك متعين فى هذا الوقت محتوم »[٢] .

=أما الاتجاه الثانى : وهو الاتجاه الإيجابى البناء فيتمثل فى منهجه العقلى ، النقلى الذوقى الذى نجده مسطوراً فى كتبه جميعاً يؤكد عليه دائماً ، ويربط بين أجزائه برباط وثيق . وقد عالج الغزالى موضوع المعرفة على أساس عقلىٍ نصىٍ روحىٍ معاً ، وبحثها بطريقة ترضى عنها عقول الطالبين للحقيقة والمعرفة جميعاً ، حيث جمع بين وسائل المعرفة كلها : الحواس ، والعقل ، والوحى ، والذوق دون إلغاء أو إبطال لشئ منها ، وجعل لكل وسيلة من هذه الوسائل حدودها ، وميدانها ، ومحيط عملها . وهو يقرر خطأ من اعتمد على نوع واحد منها دون غيره[٣] .

---

(١) المنقذ / ١٦٨ - ١٨٩ .

(٢) راجع الجواهر الغوالى : ١٢٢، ١٣٨ . وراجع كتابنا « التصوف بين أنصاره وخصومه » / ٢٦٦ .

(٣) راجع الجواهر الغوالى : ١٢٢، ١٣٨ - وراجع كتابنا « التصوف بين أنصاره وخصومه » ٢٦٦ .

ويرى الغزالى : « أن المعارف يمكن إدراكها مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهانى ، ومرة بالقبول الإيمانى ، والتحقق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامح والتجربة بحسن الظن إيمان » [1] .

ويرى أن القلب له بابان : أحدهما من خارج وهو « الحواس » ، والآخر من داخل وهو « الإلهام والنفث فى الروع » فإذا أقر الإنسان بهما جميعاً لم يكن له أن يحصر العلم فى التعليم ومباشرة الأسباب [2] .

فهناك إذن نوع من العلم يأتى عن طريق مباشرة الأسباب ، وترتيب المقدمات ، وسبيله « الحواس والعقل » وآخر يأتى دون مباشرة هذه الأسباب المألوفة ، وسبيله المجاهدة ، ومحله « القلب »

ويرى الغزالى : أن هذا الأخير : أى العلم عن غير طريق الأسباب المألوفة وهو « العلم الذوقى » لابد له من أمرين :

١- الشرع : لأن الذوق لا يتحقق دون شرع ، فمن لم يتشرع لم يتحقق .

٢- العقل : لقبول حقائق القلب ، والاعتصام به من طامات الشطح .

كما أنه لابد للعقل من الشرع لأمرين أيضاً :

١- للوصول بالعقل إلى ما فوق العقل .

٢- ولتأديب العقل بالشرع ، وعصمته من الضلال والزيغ .

كذلك لابد للشرع من العقل لأمرين كذلك :

١- معرفة أصل الشرع بالعقل (أى ما يترتب على معرفته معرفة الشرع ، كمعرفة وجود الله تعالى وحدوث العالم وكونه تعالى عالماً قادراً) .

٢- فهم ما جاء به الشرع بالعقل .

أما فائدة الذوق مع الشرع والعقل فتتمثل فى أمرين :

١- إدراك حقائق الشرع بالذوق ، وهو معنى أعمق من مجرد إدراكه عن طريق اللغة أوالعقل .

٢- استكمال العقل بالذوق ، لأن الذوق درجة من المعرفة فوق طور الحس والعقل[3] وبهذا يربط الغزالى ربطاً محكماً فى منهجه بين « العقل » و « الشرع » و « الذوق » ويعتمد جميع وسائل الإدراك والمعرفة ، ويرسم للناس طريقاً يجمع فيه

---

(١) المنقذ من الضلال ١٧٩ .

(٢) راجع الاحياء ١/٨٣ ، ٨٤

(٣) راجع كتابنا « التصوف بين أنصاره وخصومه » ٢٦٥ ، ٢٦٩ .

بين العلم والعمل جميعاً .

والغزالى – المعلم والمربى – يرى من جانب آخر : أن الناس ليسوا على درجة سواء من الفهم ، والوعى ، والإدراك ، والاستعداد لقبول المعارف والعلوم ، ولذلك نراه – فى الوقت الذى يعتمد فيه جميع وسائل المعرفة – يصنف الناس حسب درجات استعدادهم لقبول هذه المعارف والعلوم ، ويرى ضرورة اختلاف المناهج بحسب درجات الاستعداد لقبولها : [1]

فهناك العامة ، والأحداث الذين تعجز فطرهم – لعدم تخلصهم من قيود الحس – عن طلب العلم بالنظر العقلى ، والبرهان المنطقى ، فهؤلاء لا يدركون براهين العقول ، كما لاتدرك نور الشمس أبصار الخفافيش وهؤلاء تَضُرُّهم العلوم كما تضر رياح الورد بالجعل ، وفى مثل هؤلاء يقول الشافعى :

فمن منح الجهال علماً أضاعهم ومن منع المستوجبين فقد ظلم[2]

وهناك من تجاوز ذلك إلى الإدراك العقلى ، و« نور العقل كرامة لا يخص الله بها إلا الآحاد من أوليائه » [3]

وهؤلاء لا خوف عليهم إذا استخدموا عقولهم وتناولوا بالبحث والتحليل والتدقيق حقائق الأشياء دون تجاوز بها إلى غير ميدانها ، أو غرور بها إلى درجة الاعتداد بها دون غيرها .

ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون فى المستقبل ، ولهذا النوع من الإدراك والمعرفة أصحابه من هؤلاء الذين طهر الله قلوبهم وأنار بصائرهم [4] .

ويؤلف الغزالى كتبه فيخص كل نوع بطائفة منها ليطبق بذلك منهجه ، ويحقق بذلك هدفه وغايته ، وهو يضع نصب عينيه اختلاف الناس ، ودرجات استعدادهم ، ونوع الغذاء ، أو الدواء الذى يليق بكل طائفة منهم .

فنراه يضع للعوام من الناس ومن فى حكمهم كتباً ورسائل تليق بهم « كإلجام العوام عن علم الكلام » و« الرسالة القدسية » و« أيها الولد » .. وغيرها .

---

(١) راجع مقدمة كتابه « القسطاس المستقيم » .

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد ١٦ .

(٣) الاقتصاد فى الاعتقاد ١٦ .

(٤) انظر المنقذ من الضلال ١٨٠ .

ويضع للعلماء والمتكلمين كتباً تليق بعقولهم كـ « الاقتصاد فى الاعتقاد » و« المضنون به على غير أهله » .. وغيرها .
ويضع للحكماء كتباً تسموا إلى درجة عقولهم كـ « مقاصد الفلاسفة » و« تهافت الفلاسفة » .. وغيرها .
وهو يصرح بذلك فى كتابه « الأحياء »[1] وربما كان ذلك من الأسباب التى دعت بعض الخاطفين من الباحثين إلى تسجيل شئ من التناقض على إمامنا ، حتى زعم الفيلسوف الأندلسى « ابن طفيل » (ت٥٨١هـ) أن الغزالى يحل فى موضع ما يربطه في غيره ، ويكفر بأشياء فى موضع ، ثم ينتحلها فى موضع آخر [2] .
كما دعا مَنْ أحسن ظنه بالغزالى إلى الزعم بأن بعض هذه الكتب مَعْزُوَّة إليه دون أن تكون له .
ونحن لا ننكر أن يكون هناك نوع من هذه الكتب أو الرسائل ، ولكنا لا نسرف إلى الحد الذى وصل بالبعض إلى التشكيك فى كثير من كتبه ، لأنه أراد ببعضها نوعاً من الناس غير الذى أراده بغيرها .

= المنهج الاستدلالى عند الغزالى :

يؤسس الغزالى منهجه على ما يأتى :
١- العقل : المؤسس على العلوم الأولية الضرورية المستفادة إما من الحس ، أو التجربة ، أو غريزة العقل .
٢- الشرع : المستفاد من الكتاب والسنة ، خبراً ودليلاً .
٣- الذوق : المستفاد من الروح القدس ، والذى يقصر دونه العقل والفكر .
ويرى الغزالى « أن جوهر الإنسان فى أصل فطرته قد خلق خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى : { والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون }[3] وإنما خبره فى العالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك خلق ليطلع به الإنسان على عالم من الموجودات .
فأول ما خلق الله فى الإنسان حاسة اللمس ليدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والرطوبة ، واليوبسة ، واللين والخشونة .. وغيرها ، ولكن اللمس قاصر

---

(١) إحياء علوم الدين : ٨٧ .
(٢) حى بن يقظان : ١٣ نشر جوتيه نقلا عن د . محمد يوسف موسى « بين الدين والفلسفة » ١٩٦ .
(٣) النحل / ٧٨ .

عن إدراك الألوان والأصوات ، بل هى كالمعدوم فى حق اللمس .
ثم خلق له حاسة البصر ، ليدرك بها الألوان والأشكال ، وهوأوسع من عالم المحسوسات .
ثم خلق له الذوق ليذوق به الطعوم والمذوقات .
ثم خلق فيه التمييز ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، ليدرك به أموراً زائدة على المحسوسات لا يوجد منها شئ فى عالم الحس .
ثم يترقى إلى طور آخر فيخلق له العقل ، ليدرك به الواجبات ، والجائزات ، والمستحيلات ، وأموراً لا توجد فى الأطوار التى قبله .
ووراء العقل طور آخر تتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وأموراً أخرى .. العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ،وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز[1] ، هذه العين هى « البصيرة » وهى باب للقلب ينفتح على عالم الملكوت ، وهو باب الإلهام والنفث فى الروع .
وعلى ذلك فوسائل الإدراك هى :
١- الحواس : وهى التى تدرك المحسوسات كالمسموعات ، والمبصرات ، والمذوقات وغيرها .
٢- الخيال : وهو الذى يختزن ما تورده الحواس ويؤلف بينها .
٣- العقل : وهو الذى يدرك المعانى الخارجية عن الحس والخيال .
٤- الفكر : وهو الذى يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات وازدواجات ، ويستنتج منها المعارف .
٥- الوحى : الذى تأتى به الأنبياء من الله تعالى .
٦- الذوق : الذى يختص به بعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب ، وأحكام الآخرة ، بل المعارف التى يقصر دونها العقل والفكر[2] .
ويرى الإمام الغزالى : أن هذه الوسائل أدوات صالحة للإدراك والمعرفة ، إلا أن الناس حسب استعدادهم قد وقف كل جماعة منهم عند نوع واحد من الإدراك ، زاعماً أنه الطريق الأوحد إلى المعرفة .
ويرى : أن الاقتصار على واحد منها دون الآخر يعتبر نقصاً فى الاستدلال ، وجهلاً بالمدلول عليه .

---

(١) انظر المنقذ من الضلال : ١٨٠ .
(٢) راجع الجواهر الغوالى : ١٢٢،١٣٨ نقلاً عن « الفلسفة الصوفية » : ٢١٨ د . عبدالقادر محمود .

ثم يقسم الغزالى العلوم غير الضرورية من حيث العلم بها إلى ثلاثة أقسام :

١- ما يعلم بدليل العقل وحده دون الشرع .

٢- ما يعلم بدليل الشرع وحده دون العقل .

٣- ما يعلم بهما معاً .[١]

ثم يحدد موقف العقل من النقل أو الشرع ، بأن ما ورد به الشرع لا يخلو موقف العقل منه عن ثلاثة :

١- أن يحكم العقل بجوازه أو إمكانه .

٢- أن يحكم العقل باستحالته ، أو عدم إمكانه .

٣- أن يتوقف فيه العقل ، فلا يحكم بالجواز أو الاستحالة .

=فى الأول لا يخلو : إما أن تكون أدلة الشرع قطعية الثبوت والدلالة لا يتطرق إليها احتمال بوجه ما ، فحينئذ يجب التصديق بها قطعياً .

وإما أن تكون ظنية الثبوت ، أو الدلالة ، وفى هذه الحالة يكون التصديق بها ظنياً فحسب .

=وفى الثانى : أى ما قضى العقل باستحالة ظاهره ، وفى هذه الحالة يجب تأويل ما ورد به الشرع لكى يتوافق مع مقتضى العقل ، لأنه لا يتصور أن يشتمل الشرع على قاطع مخالف للعقل .

ويرى الغزالى : أن ظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيح ، والصحيح منها ليس بقاطع ، بل هو قابل للتأويل .

=وفى الثالث : وهو ما توقف العقل فيه ، فلم يقض فيه باستحالة ولا جواز ، ففى هذه الحالة يجب التصديق أيضاً لأدلة السمع ، حيث يكفى فى وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالاستحالة ، وليس يشترط لوجوب الاعتقاد بالشرع ، تجويز العقل لما ورد به الشرع [٢] .

=ويلاحظ أن الغزالى هنا لم يخرج عن المنهج الأشعرى الكلامى الذى يجمع بين الشرع والعقل ، ويحدد العلاقة بينهما على هذا النحو ، ولكنه بهذا المنهج المزدوج من الشرع والعقل ، لا يبالغ فى قيمة العقل إلى الدرجة التى وصل إليها المعتزلة والفلاسفة ، ولا يحط من قيمته إلى الدرجة التى وقف عندها الحشوية : حيث بالغ الأولون فى حرية العقل وسلطته إلى الدرجة التى جعلوه فيها حاكماً على الشرع ،

---

(١) راجع « الاقتصاد فى الاعتقاد » : ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) الإقتصاد فى الإعتقاد ١٧٩ ، ١٨٠ .

وصادموا قواطع الشرع بالعقل ، وبالغ الآخرون فى الحط من قيمته ، والحد من حريته إلى حد إلغائه ووجوب الاعتقاد والإيمان بظواهر النصوص تقليداً حتى وقعوا فى التشبيه والتجسيم « فميل هؤلاء إلى التفريط ، وميل أولئك إلى الإفراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط ، وكلا طرفى قصد الأمور ذميم ، فالواجب المحتم فى قواعد الاعتقاد هو ملازمة الاقتصاد ، والاعتماد على الأمرين دون إلغاء أو إبطال ، لأنه « لا معاندة بين الشرع المنقول ، والحق المعقول » (١) .

=أما أدلة العقل لإثبات قواعد الشرع والدفاع عنها فقد أوردها الغزالى فى كتابيه : « معيار العلم » و « محك النظر » (٢) ويمكن تلخصيها فى ثلاثة أنواع :

١- السبر والتقسيم :

وهو حصر الأمر فى قسمين ، ثم إبطال أحدهما ، فيلزم لذلك صدق الثانى وثبوته ، كقولنا : العالم إما حادث ، وإما قديم ، ومحال أن يكون قديماً ، فيلزم لذلك أن يكون حادثاً ، فإذا أمكن إبطال كونه قديماً ، لزم أن يكون حادثاً ، وهذا اللازم هو المطلوب .

وهذا اللازم مستفاد من مقدمتين هما :

١- العالم إما حادث ، وإما قديم ، وهذا علم .

٢- ومحال أن يكون قديماً . وهذا علم آخر .

ومن ثم تلزم النتيجة المطلوبة ، وهى : العالم حادث .

ولكن هذه النتيجة لا يمكن الحصول عليها إلا من علمين هما أصل لها ، بشرط أن ترتب هذه العلوم كما رأينا على وجه مخصوص ، وشرط مخصوص ، فإذا وقع الازدواج على شرطه أفاد علماً ثالثاً هو المطلوب .

وهذا الثالث : نسميه « دعوى » فى مواجهة الخصم ، ونسميه « مطلوباً » إذا لم يكن ثم خصم ، ونسميه « فائدة » باعتبار أصليه ، لأنه مستفاد منهما و مهما أقر الخصم بالأصلين تلزمه النتيجة حتماً .

٢- ترتيب المقدمتين على وجه آخر :

كأن تقول : كل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وهذا أصل .

والعالم لا يخلو عن الحوادث . وهذا أصل آخر .

فيلزم منهما صحة الدعوى وهى : العالم حادث . وهو المطلوب .

---

(١) الإقتصاد فى الإعتقاد ٧ ، ٨ .

(٢) الإقتصاد فى الإعتقاد ٢١ التمهيد الرابع .